

فليت شعري ما عساهُ كان قال ابن جبير لو رأى حجارة بعلبك او عين
هيكلكها العجيب ألا ان مسيره لم يؤد به الى تلك المدينة (١)

٢

سورية وابن جبير

رأيت في الفصل السابق الطريقة التي توخاها ابن جبير في تسطير رحلته وما ضمها
من الفوائد . فبقي علينا ان نرافقه في سياحته في بلاد الشام فنلتقط بصحبته بعض
المعلومات عن سورية في مختتم القرن الثاني عشر ولا غرو فان دليلنا فكهُ النفس متوقد
الذهن فيبهج رفقته ويفيدهم معاً

بعد ان اجتاز ابن جبير بلاد الجزيرة قطع الفرات فكان اول ما لقيه في وجهه
من بلاد الشام منبج . فاحس السائح بجواد قلبه يركض فاسترسل في وصفها بالسجع
كألوف عادة (ص ٢٤٨) ولم يذكر من خواصها الا النذر القليل مما لا يُشفى به
الليل ولا يروى الغليل . ثم سار من منبج الى حلب فوصفها وصفاً طويلاً رويلاً شيئاً
من الفاظه المبهرجة . وألحق هذا الوصف باشتقاق اسم حلب فقال (ص ٢٥١) :

« كانت قديماً في الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل بفُنيَمات له فيحلبها هنالك
وينصدق بلبنها فلذلك سُميت حلب والله اعلم »

وهذا الاشتقاق في الغرابة بكان ذكره ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٤)
مرتاباً في صحته وقد زاد عليه ابن بطوطة ما هو اغرب فجعل بدلاً من الغنم بقرة
شهباء قال : فكان اذا حلبها ابراهيم قيل « حلب ابراهيم الشهباء » . وليس في كل هذه
الاشتقاقات كما ترى ذرة من الصحة وانما هي مشابهات لفظية لا طائل تحتها . ومثلها
اشارة ابن جبير الى اشتقاق اسم حماة من حَمَى يحمي (ص ٢٥٥)

(١) ذكر ابن جبير بعلبك (ص ٢٥٨) مرة واحدة دون وصفها وألحق بذكرها قوله
« اعادها الله » كانه ظن انها في ايدي العدو . وهو ومُ ظاهر لان بعلبك لم تحصل قط في حوزة
الفرنج

ومن ملحوظات ابن جبير في مسيره من حلب الى دمشق (ص ٢٥٤) ان « خانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانةً وابوابها حديد وهي من الوثاقه في الغاية » وكفى بهذا دليلاً ناطقاً على احوال بلاد الشام في عهده . وقد كرّر الرحالة مثل هذا القول غير مرّة اطلب مثلاً قوله في خان السلطان (ص ٢٥٩)

ثم يذكر ابن جبير في طريقه من حلب الى حماة « جبل لبنان » على حسب عادة الاقدمين الذين كانوا يطلقون هذا الاسم ليس فقط على لبنان الحالي بل ايضاً على جبال النصيرية الواقعة في شماله (١) وجعل في سفح هذا الجبل (ص ٢٥٥) « الملاحدة الاسماعيليه » وذكر شيئاً من بدعتهم . امّا لبنان الحالي فقد عرفه ابن جبير بما حفره (ص ٢٨٧) :

« وهذا الجبل من اخصب بلاد الدنيا فيه انواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة »

واضاف الى قوله ما يؤيد قول المقدسي في العباد المنقطعين الى الله في لبنان فقال : « وقل ما يخاو من التبتيل والزهادة »

ثم مرّ ابن جبير في رستن (ص ٢٥٧) فإشار الى آثارها العظيمة وتحريبها على يد عمر بن الخطاب ثم قال : « ويذكر القسطنطينيون ان بها اموالاً مكنوزة والله اعلم » وقوله هذا صدق لزاعم العائمة في كل زمان عن المطالب والدفان المكنوزة في الاخربة القديمة وهو شائع في انحاء سورية الى عهدنا هذا وربما صدقه الجهال فاخربوا بسببه عدّة آثار جليلة حطموها طمعاً في ما تحتها من الكنوز المرصودة على زعمهم

ومما اثنى عليه في حص محاسن بساينها وطيب هوائها وذكر قبر خالد بن الوليد ثم قبر ابنه عبد الرحمان الذي اشبه اياه بجليل اعماله . واطاف اليهما قبر عبيد الله (٢) ابن عمر الذي قُتل في صفين . ويؤخذ من قول ابن جبير ان جثة عبيد الله نُقلت الى حص بعد موته . وكانت حص على عهد ابن جبير فقدت كثيراً من محاسنها كما لحظ الكاتب حيث قال (ص ٢٥٨) :

(١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ٢: ٣-١٠)

(٢) هي الرواية الصحيحة وليس كما روى الاستاذ سكيابارلي في ترجمته الايطالية غير مرّة « عبد الله » فانّ عبد الله بن عمر مات وقبر في مكة كما اتفق عليه كافة المؤرخين

« واسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصمّ السود وابوابها ابواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والى انافة تكثفها الابراج المشيّدة الحصينة وأما داخلها فاشئت من بادية شتاء خلقة الارعاء ملفقة البناء . لا اشراق لافاقها . ولا رونق لاسواقها . كاسدة لا عهد لها بنفاقها »

ثم واصل المسافر سيره من حمص الى دمشق . وكانت الطريق بينهما قليلة العمران كما في أيامنا اللهم الا ثلاث او اربع قرى التي احتلها كفارة التي لم يجد فيها غير النصارى (ص ٢٥٩) والنبك . وبعد اجتيازه في خان السلطان فثنية العقاب فقصر دخل الفيحاء فاطلق العنان لقلبه في وصفها . وقد اتسع في ذكر محاسنها واطنب اي اطناب ولولا مبالغته في السجع لقلنا ان كلامه من اوفى ما جاء في بيان صفاتها لا نستثني من ذلك الا بعض الكتب الخاصة التي وضعت في فضائل دمشق . ودونك ما روى عن بعض ابنيها قال (ص ٢٨٣) :

« وجهه البلدة نحو عشرين مدرسة . وجا مارستانان قديم وحديث والحديث احفظهما واكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومة بايدجم الأزمّة المحتوية على اسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاعذية وغير ذلك والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقّدون المرضى ويأمرّون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاعذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الاسم لكن الاحتفال في الجديد اكثر . وهذا القديم هو غربي الجامع المكرّم . وللمجانين المعتقلين ايضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون نودّ بالله من المحنة وسوء القدر »

وفي كتاب زبدة كشف الممالك (ص ٦٥) ما يشبه هذا الوصف في مارستانات دمشق ومما يجدر بنا ذكره الميقاتة اي الساعة الدقاقة التي كانت على باب جيرون اثبت المشرق سابقاً (٣ : ٩٨٥) كلامه فيها وهي من عجائب ذلك الزمان

ولولا ضيق المكان لاثبتنا شيئاً مما ذكره ابن جبير عن الجامع الكبير الذي اتسع في وصف ارخامه الملوّنة وبلاطه المذهب المنقوش بالقصوص البديعة وكانت الفسيفساء ترين جدرانها الخارجة المتصلة بصحنه (ص ٢٦٨) فكانت اشعة الشمس تصيبها وتنعكس الى كل لون منها فيأخذ منظره بالابصار

ومما يزيد به اندهال القارئ وصف ابن جبير لمساجد اخرى عجيبة البنيان بديعة النقوش والارحام وجدها في قرى الغوطة فافاض في محاسنها

ثم تابع ابن جبير مسيره من دمشق الى عكّة (ص ٢٩٨-٣١٠) ماراً بدارية ثم بانياس ثم وادي تبنين بين حصني هونين وتبنين حتى بلغ ساحل الشام . ووصفه لطريقه غاية في الظرافة والاعتبار يصور احوال ذلك الزمان تصويراً بهياً ويمثل للعيان ما كان يجري في انحاء الشام من الامور الخطيرة . وكان ابن جبير في صحبة قفل من التجّار يسرون بامان في بلاد العدو لاتفاق لطيف جرى بين الفريقين ترويحاً لسوق التجارة ولطفاً بالعباد (١) وهذا العمري دليل على ترقى التمدن في ذلك العهد وفيه عبة لاهل زماننا الذين لم يتمكّنوا من صيانة حقوق التجارة في وقت الحرب رغماً عما اقاموه من موثقات السلم

ولابن جبير كلام حسن في وصف صور ثبته هنا ليلمّن القارى من المقابلة بينه وبين وصف المقدسي (راجع الصفحة ٦٩٠) قال (ص ٣٠٤):

« اما حصانتها ومنعتها فاعجب ما يمدّث به وذلك انها راجعة الى بايين احدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فالذي في البر يُفَضَّى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب . واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضماً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدها من الجانب الآخر جدار معقود بالحصن فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها وعلى ذلك حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم فشان هذه الميناء شان عجيب في حسن الوقع . ولمكة مثلاً في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار هل تلك وانما ترسي خارجها والمراكب الصغار تدخل اليها فالصورة اكبر واجمل واحفل »

وبقي ابن جبير في عكّة حتى اقلعت منها سفينة جنوية عادت به الى المغرب . وكان الركّاب ألفين وليس هذا العدد مفرطاً ونحن نعلم ان بعض السفن الحربية كانت تحمل ١٢٠٠ جندي ما عدا الخيل . ومنها ما كان يركبها الزوّار في عدد ١٥٠٠ (١) . وبين

(١) ولابن جبير في هذا المكان عدّة تفاصيل وبيان عادات مألوفة تُحْمِلُ القراء الى مطالعتها لما تتضمن من الفوائد لتعريف احوال ذلك الزمان

(٢) اطلب ما جاء في هذا الصدد في كتابي مرشان وپرنس :

J. Marchand : *De Massiliensium cum Eois populis commercio*, p. 46 ; H. Prutz : *Kulturgesch. d. Kreuzzüge*, p. 105

القوانين التي وضعت للبحريين في ذلك العهد أنه لا يسوغ أن يتجاوز هذا العدد الأخير (١) ومن المعلوم أن سفن ذلك الزمان كانت شراعية لا يمكنها السفر إلا في فصول محدودة وقد نبه ابن جبير الى هذا الامر بقوله (ص ٣١١):

« وفي مهبّ الريح هذه الجهات سرّ عجيب وذلك أن الريح الشرقية لا تهبّ فيها إلا في فصل الربيع والخريف والسفر لا يكون إلا فيهما والتجّار لا يتولون الى عكّة بالبضائع إلا في هذين الفصلين في السفر ونصف الفصل الربيعي من ابريل وفيه تتحرّك الريح الشرقية وتطول مدّتها الى آخر شهر مايه وأكثر واقل بحسب ما يقضي الله تعالى به والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر وفيه تتحرّك الريح الشرقية ومدّتها اقصر من المدّة الربيعية وانما هي خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والريح الغربية أكثرها دواماً فالمسافرون الى المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد سابق فسبحان المبدع في حكمته المعجز في قدرته لا إله سواه »

وكانت حياة الركّاب على تلك السفن الكبيرة ذات حركة وتقلّبات كأنها المدن الصغرى تمثّل كلّ اطوار المعيشة اليومية . ومّا اثبت ابن جبير في رحلته وصف عيد اقامته النصارى على ظهر السفينة بأبهة عظيمة ورونق عجيب قال (ص ٣١٣):

« وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب وهو أوّل يوم من نونبر (كذا) العجبي كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له في إسراج الشمع وكاد لا يخلو احد منهم صغيراً او كبيراً ذكراً او انثى من شمعة في يده وتقدّم قسبسوم للصلاة في المركب جميعاً ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهر كلّهُ اعلاه واسفله سرجاً متقدّدة وتنادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة »

وكان المركب في تلك الاثناء ابتعد عن سواحل الشام واقترب من جزيرة صقلية فلا حاجة ان نتعقّب آثار سائحنا بعد ذلك وانما ندوّن هنا بعض الملحوظات العمومية التي تستفاد من رحلة ابن جبير بخصوص الشام ومن اقواله ما يفيد ويروّح الالباب معاً فمن ذلك أنه يستعمل اسماء الشهور القمرية والرومية معاً كما رأيت في النص

(١) اطلب كتاب شوب في تاريخ تجارة الشعوب الرومانية مع سواحل البحر المتوسط
A. Schaube : *Handelsgesch. d. roman. Voelker d. Mittelmergebicht*, p. 202.

راجع ايضاً مقالنا في تعريف هذا الكتاب (المشرق ٦: ١٢٢)

الاخير . ومنها ما لحظه في اهل الشام من المبالغة في اتخاذ الالقاب والتعظيم في السلام بما لا أثر له اليوم قال (ص ٢٨٨) :

« ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتحويل والتسويد وبامثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقي احدُ منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام فيتعاطون الحال تعاطياً والجِدُّ عندهم عَفَاء مغرب وصفة سلامهم ايماء الركوع او السجود قترى الاغشاق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربما طالت جم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تحوي بينهم هويّاً وهذه الحالة في الانعطاف الركوعي في السلام كناية ههنا لقينات النساء . . . فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الاذنان عندهم والرؤوس ولم يميز لدجيم الرئيس والمرؤوس . . . »

وقد اثني في محل آخر على احتفاء اهل الشام بالضيوف وحسن معاملتهم للغريب فقال (ص ٢٧٨) :

« فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ممن عهد الخدمة والمهنة يُسبَّب له ايضاً اسباب غريبة من الخدمة اما بستان يكون ناظوراً فيه او حمام يكون عيناً على خدمته وحافظاً لاثواب داخلية او طاحونة يكون اميناً عليها او كفالة صبيان يوزجهم الى محاضرم ويصرفهم الى منازلهم الى غير ذلك من الوجوه الواسعة »

ومن ثم يدعو اهل وطنه لياتوا بلاد الشام لينتجعوا خيراتها العسيمة قال (٢٨٥) :

« فن شاء الفلاح من نشأة مربيها فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الامور المبنيات كثيرة . فاولها فراغ البال من امر المعيشة وهو اكبر الاعوان واهمها فاذا كانت الهمة فقد وجد السيل الى الاجتهاد ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويق . . . فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك فادخل ائحاً المجتهد بسلام وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد ويقرع سن الندم على زمن التضيق والله يوفق ويرشد لا اله سواه . . . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كآها الا مبادرة اهله لاكمرام الغرباء وايتار الفقراء ولا سيما اهل باديتها فانك تجد من يدار الى بر الضيف عجباً كفى بذلك شرفاً لها وربما يمرض احدهم كسرته على فقير فتوقف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله في خبراً لاكل الفقير طعامي . لهم في ذلك سر شريف »

وفي كل هذه الاقوال ما يدل على اعتبار ابن جبير لاهل الشام وارتياحه لسجاياهم الطيبة

*

كفى بهذه الامثلة شاهداً على اقتدار المؤلف وخواص كتابه وحسن نظره بالامور وهذا ما حمل كثيرين على نقله الى اللغات الاوربية بتمامه او باقسام منه. ومن ذلك ترجمة كاملة ايطالية نشرها في العام المنصرم العلامة سكيافاري (١) وقد تصفحنا هذه الترجمة فوجدناها بالاجمال مضبوطة جامعة بين الامانة وحسن الذوق. وقد توصل المترجم الى ان يزيل اللبس والشبهات عن عدة مواضع كان نسخها النساخ فتحقق روايتها الاصلية واخرج معناها الصحيح. بيد اننا كنا وددنا لو ذيل جناب الناقل ترجمته بجواش اوفر وملحوظات اوسع. وقد وقع مع ذلك في هذه الترجمة بعض اغلاط منها (ص ٢٥٠) انه لم يفرق بين الواقعة التي جرت في جوار حمص وقصير المجاورة لدمشق ومن ثم ليس «النهر الجاري امامها» نهر العاصي كما ظن. وقد كرر هذا الغلط في محل آخر (ص ٤٠٠) - وكذلك وهم (ص ٣٨٧) بزعمه ان باب الجابية في دمشق معناه باب الحوض. وانما دُعي بهذا الاسم لانه كان باب يؤدي الى الجابية وهي حاضرة بني غسان. الا ان هذه الاغلاط لا تمس في شيء. قدّر هذه الترجمة التي تولّى عملها. كما انه جمع في مقدمته من الافادات في تعريف المؤلف ما لم يبلغه احد قبله. هذا فضلاً عن الفهارس التي ألحقها بالكتاب. فثني اذن الشاء الطيب على الترجمة الايطالية الحديثة التي قرّبت منافع ذلك التأليف الذي يستحق درسا خصوصياً لكثرة مضامينه ولتأثيره في الكتبة التابعة

هذا وكنا في وشك الانتهاء من كلامنا على ابن جبير اذ بلغتنا الطبعة الثانية من كتاب رحلته التي تولّاها ذلك المستشرق الهام السيد دي غوي (de Goeje) صاحب المطبوعات الشرقية المتعددة (٢) وحسبك باسمه دليلاً على مزايا هذه الطبعة التي تفوق

(١) اسمها

Jbn Gubayr : *Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto*. Roma, 1906, XXVII—412.

(٢) هذا عنوانه:

E. J. W. GIBB MEMORIAL. vol. V. TRAVELS OF JBN JUBAIR. (Wright's Text). revised by M. J. de Goeje, Leyden, E. J. Brill, 1907. LIII—363

الطبعة الاولى مع ضبطها . ومن محاسن هذه الطبعة الجديدة ان جناب وليّ العمل اثبت الاصلاحات التي تركها الطابع الاول الميسوريّ و اضاف اليها تنقيحات جديدة . وقد ابدى الميسور دي غوي اسفه على عدم حصوله على نسخة ثانية من الرحلة اشار اليها الميسور سكيارلي وذكر وجودها في مراكش . والحق يقال ان هذه الرحلة لا يُعرف لها حتى الآن الا نسخة فريدة فلو امكنت مقاباتها على نسخة ثانية لاسْتَطيع تحسينها وزيادة ضبطها وعلى كل حال نهنّي الدكتور دي غوي ونشكره على هذه الخدمة الجديدة التي ألحقها بخدمة السابقة للآداب العربيّة لاسيما للآثار الجغرافيّة جازاهُ الله الف خير ونفع به اهل وطننا الذين يجدون في مطبوعاته معلومات لا تحصى عن بلاد الشام في غابر الاعصار

فهرست

المذاكرات الجغرافية في الاقطار السوريّة

صفحة	صفحة	تمهيد
	٥	سوريّة ومهد الجنس البشري
٤٠	٧	موقع سوريّة الجغرافي
٤٠	١٠	السوريون حملة التمدن القديم
٤٣	٢٣	السوريون دعاة الدين
	٢٦	كثرة التقاسيم الجغرافيّة
٥٣	٢٩	كتبة العرب وجغرافيّة سوريّة
٥٣	٣٤	الجغرافيون العرب الاقدمون
٥٧	٣٤	
		المقدسّي وجغرافيّة سوريّة في القرن
		العاشر للميلاد
		المقدسّي وتأليفه
		بلاد الشام على عهد المقدسي
		بلاد سوريّة في القرن الثاني عشر
		وفقاً لرواية ابن جبير
		تعريف رحلة ابن جبير
		سوريّة وابن جبير